المدخل:

لكلِّ أمة سنة في تخليد مآثرها، وذكر مناقبها، وكانت سنة العرب في ذلك أن تعتمد الشعر؛ فهو سجلّ لأيامهم، ووقائعهم، وأصولهم، وأنسابهم، فضلاً عن كونه سجلاً لعواطفهم وأحاسيسهم وتجاربهم. من ثم يقول أبو هلال العسكري (ت395هـ): **(لا تعرف أنساب العرب، وتواريخها، وأيامها، ووقائعها، إلاّ من جملة أشعارها فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها)**[1].

ويقول ابن رشيق القيرواني (ت456هـ): **(احتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسُمحائها الأجواد، لتهُزّ أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشِّيَم)**[2] فكان الشعر الذي حقق لهم غايتهم في ذلك.

لا نبعد إذا قلنا أَن شعر الحرب كان ألصق الأشعار بالعرب، وأنطقها بحقيقتهم في كلِّ عصورهم، في سوح بداواتهم، وميادين حضاراتهم، ويشهد التأريخ العربي ما كان للشاعر من أثر بارز في قضايا قومه في الحرب والسلم على حدٍّ سواء، فقد كان صوته بمثابة جهاز إعلامي يعبر عن وجدان القبيلة، ويزداد هذا الأثر بروزاً وأهمية في أوقات الشدّة، وفي مقدمتها الحرب. فكان الشاعر يدفع إلى مقدمة الصفوف للتغني بمآثر القوم في الكرم والشجاعة ونصرة الضعيف والإقدام في ساحة الوغى، حتى ان معظم الحروب العربية كانت مصادرها الأساسية هي تلك القصائد التي قيلت في زمانها.

كان التغني بالبطولة والأمجاد يدور على ألسنة الشعراء الفرسان في عصر ما قبل الإسلام، أو ما يسمى بشعر الفروسية. وقد تطور في العصر الإسلامي ودخلت فيه مفاهيم جديدة أعطته طابعاً مختلفاً مما كان عليه. كان هذا الطابع دينياً يستند إلى الإيمان الراسخ والعقيدة الثابتة، وإذا بالشعراء يتغنون بأشعار تثير حماستهم، وحماسة المجاهدين، ويتخيلون الجنة وما فيها من نعيم لا يزول فيكون

الموت ضالتهم المنشودة التي تقربهم من الأمل المنشود، إحدى الحسنيين النصر على عدوهم، أو الشهادة في سبيل الله.

إن هذه الأهمية الكبيرة التي أعطاها الإسلام للشهيد، والمكانة الرفيعة له، تركت أثراً واضحاً، وصدى قوياً في الشعر، فاستطاع الشعراء في باب تخليد الشهداء ان يستوعبوا المضامين الجديدة التي نادى بها الإسلام سواء في القرآن الكريم، أم السنة النبوية الشريفة. فتمثلوا تلك المعاني، للتعبير عن مشاعر المجاهدين الصادقة وأحاسيسهم النبيلة، فكان الشعر مصوراً لبطولة الشهداء النادرة، وشجاعتهم الفائقة فضلاً عن كونه حافزاً على التضحية، وباعثاً على الاندفاع لنيل شرف الاستشهاد.

ونظرة في كتب التأريخ والآداب نجدها زاخرة بنصوص شعرية كثيرة، قالها الشعراء في معارك الجهاد والفتوح الإسلامية معبرين فيها عن أمنياتهم بطلب الشهادة. فهذا الصحابي الجليل عبد الله بن رواحه ﷺ يسأل الله تعالى أن يكرمه بالشهادة والخلود، في مثل قوله:

لكنّني أسألُ الرّحمنَ مَغفِرةً وضربةً ذات فَرغٍ تَقذِفُ الزَّبَدَا
أو طعنةً بيَدى حَرّانَ مُجهزةً بحربةٍ تُنفِذُ الأحشاء والكَبِدا
حتى يُقالَ إذا مَرّوا على جَدَثي أرشده اللهُ من غازٍ وقد رَشَدا[3]

كما نجد بعض الشعراء يدعو إلى الصبر في القتال أو الموت في سبيل الله طمعاً في الجنة وثوابها، فهذا عُمير بن الحُمام ﷺ الذي يعدّ نموذجاً مثالياً للمجاهدين الذين استماتوا في القتال وجاهدوا بروح مفعمة بالصبر والإيمان والشهادة، يذكر انه كان يرتجز يوم بدرٍ قبل استشهاده بهذه الأبيات:

ركضاً إلى الله بغيرِ زادِ الا التُّقَى وعملِ المَعَادِ
والصَّبر في الله على الجهادِ وكلُّ زادٍ عُرضَةُ النَّفادِ
غَير التُّقى والبرّ والرَّشَادِ[4]

المبحث الأول: الدراسة الموضوعية

ظل شعر الحرب ظاهرة متميزة عبر العصور المختلفة حتى امتدت جذورها في الشعر العربي الحديث، فكان الشعراء ملتزمين في كل العصور بمواكبة معارك التحرير التي خاضتها الأمة العربية ضد أشكال الاستعمار المتعددة، وبعد أن نالت الدول العربية استقلالها من الدول الاستعمارية، بقيت دولة واحدة محتلةً، وما زالت تعاني آلام الاحتلال، وطغيان الصهاينة، إنها فلسطين قضية الأمة العربية والإسلامية وشغلها الشاغل، وهمّها الدائم. وكان أبرز حدث شهدته الساحة الفلسطينية في سنواتها الأخيرة هي الانتفاضة التي مازالت مستمرة، فهبَّ الشعراء العرب من كلِّ الأقطار العربية يواكبون الانتفاضة الفلسطينية في قصائدهم يسجلون بطولات الشعب الجريح لنيل حريته، ويخلدون شهداءه، ويعبرون عن عظمة الروح المقاتلة، ويمجدون الفداء والتضحية.

وقد كان تمجيد الشهداء الذين يبذلون أنفسهم في سبيل وطنهم أبرز ميسم للشعر العربي الحديث إبان حركة التحرير العربي، وكانت من المعاني التي رددها الشعراء في هذا الميدان أن دماء الشهيد أزكى وأندى من شعرهم، وأن الشعر مهما كان فنياً وقادراً على الوصول إلى أعماق الشهيد، ومهما عبرَّ عن وجدان الأمة، ورغبتها في نيل الحرية، فلن يرقى على أي نحو كان إلى ما يبذله الشهداء في هذا المضمار، فهذا الشاعر اليماني عبد العزيز المقالح يقول في قصيدة له بعنوان (مرثاة شهيد):

ولن يكون الشعر من بواتري
فالقدم الثابت فوق الرمل والصخور
اشرف من جبين ألف شاعر[5]

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان: (على أبواب شهيد):

ومهما فعلتُ فإني أنوء بعاري
أجرجر في الليل ظلّى
واكره وجه نهاري[6]

فأمام الحياة التي يحرص عليها كلّ إنسان، يحرص على التمتع بمأكلها ومشربها وزينتها من بناء القصور، وركوب السيارات الحديثة، ومغازلة الحسان الجميلات. وكلٌّ ما فيها من مغريات مادية، فضلاً عن أن الإنسان يجد من الصعوبة بمكان أن يختار الموت، أو يقبل عليه ما لم يتمتع تمتعاً كافياً باليقين والإيمان. أمام كل ذلك أحس الشعراء بدور الشهداء في سبيل أن يصنعوا حياة أخرى لأجيال جديدة فنجد أن الشعراء رسموا حالة القدسية للشهيد، ويستمدون ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد قال تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[7]، وقال الرسول ﷺ: ''**الشهيدُ يُبعث يوم القيامة وجروحُه تشخبُ دمًّا اللون لون الدم، والريحُ ريحُ المِسْك**''[8].

ومن هذه المكانة المقدسة للشهيد ودمه الطاهر النقي استمد الشعراء صورهم في مثل قول الشاعر عبد العزيز المقالح مخاطباً الشهيد:

أتسمح لي أن أعفر وجهي:
أمرغ شعري
بباقي الدماء
أمزق وزري
لأعرف بابَ السماء
وعذري إليك، إلى شمس عينيك
أني جبان[9]

وفي الشعر العربي الذي تناول القضية الفلسطينية وصراعها مع الصهاينة، ترددت هذه المعاني، معنى قدسية الشهيد، وقد ذهب (محمود شيت خطاب) إلى الموازنة بين الشهداء الأحرار، وبين الأحياء من الخونة، الذين وضعهم الأجنبي ليخرسوا الألسنة، ويمنعوا الجماهير العربية عن التعبير عن همومها وآلامها وتطلعاتها فالشهداء، أنقذوا الوطن، وماتوا شجعاناً وهم المخلصون لأمتهم ودينهم، والخائنون يتمادون في غيهم وأهوائهم، كما في قوله:

هذي قبور الخالدين، فقد قضوا شهداء، حتى ينقذوا الأوطانا

قد جالدوا الاعداء، حتى استشهدوا ماتوا بساحات الوغى شجعانا
ماتوا دفاعاً عن حياضٍ دُنست بأحطّ خلق الله في دنيانا
المخلصون تسربلوا بدمائم والخائنون تسنّموا البنيانا

كانت الغاية الأولى للشعراء ان يبعثوا في الأمة روح التحدي، وأن ينزعوا من النفوس حالة اليأس، فهناك طريق لخلاص الأمة من أسرها وذلها وهو طريق الجهاد، وبذل الأنفس، والأموال رخيصة في سبيل الله كما في قول (محمود شيت خطاب):

المسجد الأقصى ينادي أمةً تركته أضعف ما يكون مكانا
إني لأعلمُ أن دين محمّدٍ لا يرتضي للمسلمين هوانا
إن الخلودَ لمن يموت مجاهداً ليس الخلود لمن يعيش جبانا[10]

وقد سعى الشهداء إلى هذه الغاية قبل الشعراء، فتركوا وصياتهم التي لها وقع على النفوس كبير، يزهدون في الحياة من منطلق إيمانيٍّ عميق، ويرغبون في الموت محاولين بعث الهمم في النفوس واستثارة العزائم، فهذا الشهيد (إبراهيم فايد) يجعل شهادته عرساً لأنه سيلاقي الله راضياً عنه فيقول: **(هذا اليوم هو بداية حياتي، وهو عرسي وزفافي، أدعو الله ان يتقبلني إلى جواره)**[11].

ويسعى الشهيد (أمجد فياض) إلى الغاية ذاتها، فيقول في وصيته: **(أحبتي في الله، اعلموا ان إسلامنا عظيم، وديننا متين، يستحق ان يحكم هذه المعمورة، ولكي نثبت أحقيته في حكم هذه الأرض وجب أن نضحي بكل ماهو غالٍ ونفيسٍ لإعلاء كلمته ولا أغلى من أن يضحي الإنسان بنفسه، واعلموا أن كل قطرة نزفت في سبيل الله هي وقود وشموع تضيء للأمة طريق النصر)**[12].

فجعل دمه وقوداً لنصر الأمة، وهو يعلم تمام العلم ماذا يفعل ويعلم أن الحياة غالية، وان النفس عزيزة لكنه يعلم أيضاً أن الحياة فانية وأنه سينال الدرجات

العلا عند ربّه ﷻ، فيهون على الأمة أن تبذل دماءها لأجل ربِّها، وفي سبيل إنقاذها من نير الاحتلال والذل والهوان.

ويؤكد الشهيد (محمود أبو هنود) الأمر نفسه، ويرى أَن ابتعاد الناس عن كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ هو الذي جعلهم يتمسكون بالحياة ويرضون بالذُّل، ولو أنهم كانوا قريبين من دينهم الذي يحثهم على الاستشهاد، ويُعلي من مقام الشهيد لما وصل الأمرُ بهم إلى ما هم عليه من الخنوع والخضوع. فيقول في وصيته (**أيها المسلمون: اعلموا أَن ما أصاب أمتنا وشعبنا ما كان سببه الا بعدنا عن منهج ربنا ﷻ، وهدي نبينا ﷺ ولهثنا وراء الغرب تارةً ووراء الشرق تارة أخرى. فما أورثنا ذلك وما زادنا إلاّ ذلاً واستعباداً وتفككاً وفرقة**)[13].

ولعلَّ وصية (أبي حمزة)[14] تعدُّ واحدةً من الخطب الحماسية، والواقعية، والجهادية، والعاطفية، ذات البعد الذاتي والموضوعي معاً. وقد ترددت في هذه الوصية نغمة الغربة، فهذا الجهاد المتواصل لابناء فلسطين الذي يصدر عن وعي تامٍ بقضيتهم الدينية والمصيرية، لا يلقى الصدى المطلوب، ولا الترحيب المرضي. ولذلك فهو يتطرق إلى قضية التمسك بهذا المنهج في المواجهة، وإن كان كالقبض على الجمر فيقول: (**أيها القابضون على جمرتي الدين والوطن، أيُّها الأوفياء الصادقون، الذين هم للجهاد والاستشهاد عاشقون**).

ويمضي فيقول: (**فمن أجل الأقصى، وفي سبيل رفع كلمة الله في الأرض آثرت لقاء الله على لقاء الناس، وقلت لنفسي: غداً ألقى الأحبّه محمداً وصحبه**).

ويؤكد مرةً أخرى، كما أكد ذلك غيره من الاستشهاديين على الجهاد في سبيل الله، فهو الطريق لاسترداد الحق المغصوب، فيقول:

(**حياتكم الجهاد، عزكم الجهاد، ووجودكم مرتبط ارتباطاً مصيرياً بالجهاد واعلموا أَنه لا قيمة لكم تحت الشمس إلاّ إذا امتشقتم أسلحتكم، وأبدتم خضراء الطواغيت، والكفار، والظالمين.**

إن الجهاد هو قوام دعوتكم، وحصن دينكم، وترس شريعتكم، فلا عذر لكم عند الله إن خلص الكفار إلى دين الله، وفيكم عرق ينبض).

إن العمليات التي يقوم بها الفدائيون الفلسطينيون لم تعد كما كانت العمليات إبان حركات التحرير العربي، تحتمل النجاح أو الشهادة، بل إن العمليات أصبحت استشهادية مائةً بالمائة، لأن المجاهد الفلسطيني في ظل الحزام الأمني الذي يفرضه الصهاينة على الفلسطينيين، وفي ظل وسائلهم في امتهان الناس وإذلالهم لجئوا إلى تفجير أنفسهم محملين بالقنابل التي تكفي لإصابة الهدف الذي ينشدون إصابته بإذن الله. وقد أثبتت الأجهزة الأمنية الصهيونية فشلها في التصدي لمثل هذه العمليات الجهادية، وهي نوع من الإحساس بمعنى الحياة، ولكن من وجهة نظر إسلامية عربية إلى جانب وصايا الشهداء التي سعوا من خلالها إلى بعث روح المقاومة والجهاد في أوصال الأمة الإسلامية والعربية على نحو خاص، كانت هناك قصائد شعرية لهم، بوصف أن الشعر يعتمد الإيجاز والإيحاء من غير شرح وتطويل، فهو قادر من هذه الناحية على استيعاب التجربة الشعورية لدى الشهيد قبل أن يجود بحياته في سبيل الله.

ومن ذلك قول أحدهم:

أخي ان نمت نلقَ أحبابنا ... فروضات ربّي أعدت لنا
وأطيارها رفرفت حولنا ... فطوبى لنا في ديار الخلود
أخى سوف تبكي عليك العيون ... وتسأل عنك دموع المئين
فإن جفَّ دمعي سيبكي الغمام ... يرصع قبرك بالياسمين
ياذا المسجى في التراب رفاتهُ ... من لي بمثلك صانعاً للمعجزات
أنعم بقبر قد تعطر جوفه ... إذ ضم في أحشائه ذاك الرفات
آن الأوان أيا شهيد لراحة ... في صحبة المختار والغرِّ الدعاة
أبشر فإن جهادنا متواصل ... إن غاب مقدام ستخلفه مئات[15]

وفي مثل هذه القصائد وسواها كان يبرز الأمل قوياً بحتمية الانتصار، وكان الإقدام على اغتيال هذا البطل أو ذاك من قادة الانتفاضة أو سواهم من العقول المدبّرة للعمليات الاستشهادية لا يثني الفلسطينيين عن غايتهم، ولا يشككهم في قضيتهم، بل كان يقر في أعماقهم المؤمنة الصابرة أن مصنع الأبطال يستمرُّ في صنعه، وأن سقوط هذا البطل لا يعني نهاية الانتفاضة، ولا نهاية الحياة. وكلُّ ذلك من إيمانهم بأنهم على حقٍّ وأن الله يؤيدهم بنصره وحفظه ورعايته. فكما قال الشهيد في القصيدة السابقة (**إن غاب مقدام ستخلفه مئات**) نجد ذلك في قصائد الشعراء الأخرى إذ يقول الشاعر (مانع سعيد):

فإذا قضى بطل سيولد غيره متحدياً وسنقتفي آثاره
لكن إذا ضاع الحمى من أهله ذهبت جميع التضحيات خساره

إذ تبرز هنا رؤية للانتفاضة ترى في وجوب استمرارها؛ لأن ذلك يعني أن دماء الأبطال قد ذهبت هدراً. فكي يكون الثأر لتلك الدماء، وكي لا تذهب التضحيات سدىً، ينبغي أن تستمر الانتفاضة. وإنما كان الخوف من العرب الذي لا يؤيدون الانتفاضة ولا هدفها في الخلاص من الاحتلال، كان الخوف ممن يريدون الاستسلام، ويرغبون في حلول تقضي على وهج الانتفاضة، وتقضي على بقيتها الباقية إذن فكان الخوف من ذلك ليس من سواه كما في قول الشاعر نفسه:

فإذا سمعت أخي عن استشهاده يوماً وحاول ذهنك استذكاره
فاعلم بأني سوف أحيا مشعلاً في كل أبناء القبيلة ثاره
أنا لا أخاف بأن يضيع دم الفتى في صوت من سيقدم استذكاره
لكن أخاف على بقية موطنٍ من غفلةٍ لقبيلتي عذاره[16]

كان الشعراء يعتصرهم الألم على العرب الذين لم يؤيدوا ثورة الحجارة. كانوا يريدون دعماً معنوياً بالقول على أقل تقدير، وليس تنكراً أو تعامياً عن دور

الانتفاضـــة في حياة الجهاد والنضال. ولأن هذا الموقف متباين تبايناً يؤدي به إلى المفارقة فهذا يبذل دمه في سبيل الله لنيل حريته وكرامته، وذاك الآخـــر يـــأبى أن يؤيده ولو بالقول من غير أن يصاحب ذلك ملل ومن ثَمَّ فقـــد وجـــد الشـــعراء أن الكلمات تفقد دلالاتها، إذ كيف يمكن أن يعبروا عن هذا الأمـــر فتفجـــرت العبـــارة الوجدانية العاطفية في محاولة من الشعراء للتعبير عن هذا التناقض، كما في قـــول الشاعر:

ما عـــاد للكلمـــات وهـــج حـــرارة وأحـــس حـــين أقولهـــا بمـــراره
فعلام انفخ فـــي الرمـــاد محـــاولاً أن اســـتمد مـــن الرمـــاد شـــراره
لكنَّـــه قـــدري ولســـت مخيـــراً فـــي مـــا الفـــؤاد أراده واختـــاره[17]

لقد صوّر الشعراء كل ما كان يجري في الساحة، وكان من أكثر جـــرائم العصر وحشيةً، وانعداماً للإنسانية هو إقدام الصهاينة الأنجاس على قتـــل الأطفـــال الفلسطينيين و(قد كشفت دراستان فلسطينيتان أن أكثر من ربع الشهداء الذين سقطوا في الانتفاضة هم من الأطفال)[18]، وكان بعضها من اصطياد الكاميرات التلفزيونية حيث تمكن صحفي فرنسي من تصوير اللحظات التي مَرَّ بها الطفل الشهيد (محمـــد جمال الدرة) حينما كان يحاول الاختباء وراء ظهر أبيه ليمنـــع عنـــه رصاصـــات الصهاينة، فقتلوه من وراء ظهره شهيداً إلى ربه في عليين. فاســـتثار هـــذا الأمـــر الضمير العالمي وهاجت به هواجس الشعراء لقتل الأطفال الأبرياء، كما نجد فـــي شعر (يوسف عبد العزيز) حينما يقدم الشهيد إبراهيم درويش أحـــد أطفـــال رام الله بوصفه نموذجاً للأطفال الأبطال الذين سفكت دماؤهم، فيقول:

هذا هو إبراهيم سنبلة أطلت
من عيون الحلم
جسد إلهي ووجه لامع كالنجم
ولدته رام الله في الزمن البخيل
وقدمتها لشعبها العربي

فلنقرأ عليه سورة الحجر
قل أعوذ برب الحجر
من رصاص الجنود
من طواويس هذي البلاد
من صمت أمتنا العربية
من وجه أمريكا(19)

فهو يستعيذ برب الحجارة الذي برعايته وتوفيقه يتم النصر، ومن رصاص الجنود الصهاينة ومن صمت الأمة العربية، ومن وجه أمريكا التي لا تفتأ تدعم الصهاينة ولا تتوقف عن ذلك حتى يلج الجملُ سم الخياط.

وهذا الشاعر (مانع سعيد) يذكر طفلاً من بيّاره اغتالته يد الجريمة والإرهاب فيقول:

ماذا يقول الطفلُ مشنوقاً على غصنٍ من الزيتون في بيّاره
ما غاب عن عينيه إصرار وما خنقَ الجبانُ بشنقِهِ إصراره
حتى الحجارة لم تزل في جيبهِ تحكي بحسمٍ رأيه وقراره(20)

فإصرار من الطفل على الاستمرار في الانتفاضة حتى تحقيق النصر أو الشهادة بهذا الشعب الذي أراد أن ينال حياته يواجه الأسلحة المتطورة بسلاح من ظهر الأرض هو حجارتها لتقاتل الأرض مع أهلها كلَّ غاصب متجبرٍ.

ردّد الشعراء أن الشهيد مقدس، وأن الانتفاضة مستمرة، كما رسموا صورة أخرى للشهيد فكان في شعرهم شمعة مضيئة في طريق الأمة، وضياء ساطعاً في جبين التأريخ. شمعة تحتاج إلى شموع، وضوء لو اجتمع إليه أشباهه لكان حزمة كبيرةً. شمعة لا تريد أن تُطفأ من الآخرين، وكان أكثر الأمور إيلاماً أن تُطفئه يد تدّعي أنها عربية، وأنها تريد السلام، وتنبذ الإرهاب، فكان الشهيد في أشعار الشعراء ضوءاً وألقاً ومنارةً على غرار قول الشاعر نفسه:

ماذا يقول دم الشهيد لأمة شهدت عيون نيامها أزهاره

لكنهـــا واليـــأس يُرخـــي فوقهـــا من عتمـــة الليـــل الشـــقيّ ســـتاره
عادت إلى الأحـــلام تجتـــرُّ المنـــى ودمُ الشهيدِ يُضيءُ مثـــل منـــاره[21]

وكون الشهيد شعلة تنير للأجيال طريقها، هذا المعنى لم يكن جديداً، فقـد ذكر الشعراء في أنحاء الوطن العربي كافة هذا الأمر، فهذا شاعر يمـاني يـودُّ أن يقبس شيئاً من ضياء الشهيد:

أتسمح لي أن أمر ببابك؟!
أتقبلني لحظةً في رحابك؟!
لألثم حيث هوى السيف، أقبس بعض الشعاع
لأقرأ بين يديك اعتذاري
لأحرق في الكلمات الحزينة عاري
لأشعر- لو لحظة- أنني آدميّ[22]

ومثل ذلك جعل سليمان العيسى في (أنشودة ابن الشهيد) من الشهيد لهبـاً، وناراً

أنـــا صـــوت الشـــهيد ونـــا رهُ الخضـــــراء يـــــا وطنـــــي
وتحـــــت بيـــــارق الأبطـــــا لِ ســـوف أعـــيش مثـــل أبـــي
وأحمـــــل صـــــوته بـــــدمي وصـــــورته علـــــى هُـــــدُبي
ومثـــل المـــوج مثـــل المـــو ج، أجيـــــال مـــــن اللهـــــب
تجـــيءُ تجـــيءُ يـــا بلـــدي وتصـــــنع وحـــــدة العـــــربِ[23]

وقد دخلت الانتفاضة منعطفاً خطيراً وجديداً حينما أقدمت لأول مرة امرأة فلسطينية للقيام بعملية استشهادية في قلب مدينـة القـدس، كانـت الآنسـة وفـاء إدريس[24] وقد قتل على أثر العملية صهيوني، وجرح قرابة 14 آخرين. وقد أثارت هذه العملية حالة من الإرباك بين صفوف الشـرطة والاسـتخبارات الصـهيونية، واضطرتهم إلى فرض إجراءات أمنية جديدة تأخذ هذا العامل الجديد بعين الاعتبار.

أكدت المصادر الفلسطينية أن الشهيدة كانت في السادسة والعشرين من عمرها، وكانت متطوعة في الهلال الأحمر الفلسطيني، ولم تكن تنتمي إلى أي تنظيم سياسي أو عسكري فلسطيني، وقد أكدت والدة الشهيدة وفاء علي إدريس أن أقارب الشهيدة تجمعوا في منزلها للوقوف بجانبها وأن ابنتها حينما غادرت المنزل يوم العملية لآخر مرة كانت مبتسمة وسعيدة.

إن هذه العملية قد أثارت العاطفة الشعبية في البلدان العربية، وتناقلت وسائل الإعلام المختلفة خبر العملية ذات العطر الأُنثوي، وإذ استطاعت الشهيدة أن تدخل إلى أعماق الشعب العربي الذي يحس باليأس والضعف والعجز فإنها كانت دفعة معنوية جديدة للانتفاضة الفلسطينية وأثارت الحماسة في نفوس العرب ممن رضوا أن يعيشوا على هامش الحياة في دعةٍ ولهوٍ وانزواء عن التأريخ أثارت هذه العملية الشعراء، وحركتهم تحريكاً عنيفاً، وكان منهم د. حاكم مالك الزيادي الذي نظم قصيدة بعنوان: (إلى الشهيدة وفاء إدريس مع الحب والاعتذار)[25]، وكان وجه الاعتذار في هذه القصيدة أن المرأة بدأت تستشعر دورها في الحياة والجهاد، في حين أن الآلاف من المسلمين والعرب ينامون في وهدة الحياة. فيقول:

تحية تضوعت بنفحة الفداء

إلى الشهيدة التي تضمخت أشلاؤها بحمرة الدماء

إلى الشهيدة التي صلّت لدى استشهادها السماء

إلى الشهيدة التي أثار كبرياءها الغضب

ولم تطق أن يُستذلَ قومُها العرب

إلى أميرة الفدى، وفاء

ينهي القصيدة بالنزيف والألم، ولكن وفاء إدريس كانت بلسماً لهما فيقول:

يا فخر كل نسوة الشعوب والأمم

يا أجمل النساء زُينت بروعة القيمْ

يا غابة الزيتون والنخيل والحنّاءْ

يا بيدر القمح الذي يبشر الجياع بالعطاء

يا زهو كل روضة، وجود كل ديمة من الديم
يا رونق السيف ويا نصاعة القرطاس، يا وحي القلم
أصبحت في حياتنا
أنشودة الفداء والإباء والشّمم
يا بلسماً لجرحنا المسكون بالنزيف والألمْ

لقد تآصرت الدواعي الدينية لتحرير بيت المقدس، والمسجد الأقصى، وشعور الفلسطينيين بالذل والمهانة تآصرت جميعها في أشعار الشعراء فعبروا عنها مازجين بين الحماسة، والألم، والحزن في ظلِّ واقعٍ لا يقدم لهم العون الكافي، ولا التفهم الشافي. وشارك الشعراء العرب إخوانهم في هذا المجال فهذا (رشيد عبد الرحمن العبيدي) في قصيدته (الوجد العارم) يبكي إلى رسول الله ﷺ حال القدس، ويبشر بالفجر الذي سيكون فيه الخلاص قريباً فيقول:

إليك رسول الله أشكو مواطنا ... أهينت، ودار الأكرمين سليبُ
متى يا ترى قومي يثور عميدهم؟! ... متى يستثير المكرمات وثوبُ
متى تصطلي في كلِّ شبرٍ مواقد ... ليحرق جان غاصب وغريبُ
فلسطينُ جاءتك العصائب فاصبري ... فإن ضياء الصبح منك قريبُ[26]

وهكذا تمكن الشعر العربي من التغلغل إلى أعماق الانتفاضة الفلسطينية فخلّد شهداءها، وأحاط بكلِّ جوانبها السياسية، والدينية، والقومية، والإنسانية، على نحوٍ مؤثرٍ في نفسية العربي المسلم وعلى صورة توازن بين ماضي الأمة، وإمكانياتها وقدرتها على النهوض للقيام بدورها في الحياة.

المبحث الثاني: الدراسة الفنية

الشعر العربي الذي جاء في تخليد عمليات الاستشهاد يعبرُّ عن التزام الفلسطينيين بقضيتهم المصيرية في الدفاع عن وطنهم السليب. ومثل هذا الشعر لابد فيه من الوضوح بغية إفهام المتلقي الأسس والمبادئ التي يقوم عليها. وكلُّ شعر ثوري لابُدَّ أن يكون واضحاً، ومن ثم يمتاز هذا الشعر **(بالعمق المضموني وبتغليب المضمون على الشكل)**[27]. على أن مثل هذا الوضوح حينما لا يلقى قبولاً من المجتمع العربي، أو العالمي، فإنه سيؤدي بالشاعر إلى وجهة أخرى.

إذ يبدأ الإحساس بالغربة عند الشعراء، وبانفصالهم عن الواقع، وكما هو معلوم فإنَّ القضية الفلسطينية مفهومة واضحة لدى العالم كلّه، لكنها لا تحظى بالدعم الأمريكي، أو بالأحرى أن الصهاينة أعداء الفلسطينيين يحظون بهذا الدعم ضد قضية الفلسطينيين العادلة.

ولمَّا كانت أمريكا القوة الأولى في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق؛ فقد لجأ العالم إلى محاباتها، وعلى وفق ما يسمى في عالم اليوم بـ **(السياسة)**. وكانت القضية الفلسطينية إحدى ضحايا هذه المحاباة والمراءاة. وإذا كانت محاباة الغرب لها أمراً يبدو له أسبابه السياسية، فإنَّ محاباة العرب لها أمر يحتاج إلى تعليل أو تفسير، لأن أمريكا تتحين الفرص لإضعاف الشعب العربي وسلب كل مقوماته التي يتكئ عليها للنهوض والتقدم.

فكان الواجب الإسلامي والقومي يحتم على العرب أن يفهموا أبعاد الخطاب الشعري الذي خلد العمليات الاستشهادية. غير أن هذا الأمر لم يكن إلاَّ على المستوى الشعبي. ومثل هذا الأمر له وقعه على النفس الإنسانية الشاعرة، فيزيد إحساسها بالغربة، مما يؤدي إلى الإبداع الفني، فكلما زادت المعاناة عند الشعراء زاد الإبداع الفني، وتفجرت الدلالات لتعبر عن المشاعر الهياجة في الذات الشاعرة.

من ثَمَّ فإن الوضوح الظاهر في الشعر قد رافقه سمو فني على مستوى الأداء الفني بسببٍ من إحساس الشعراء بالواقع، وانفصالهم عنه، وبالغربة أيضاً.

وقد ارتأى الباحثان أَن يدرسا في هذه الصفحات من البحث، الأسلوب الشعري أي طريقة التعبير التي يمكن أَن تكون ميسماً على الشعر الذي خلَّد العمليات الاستشهادية وعبرَّ عن القضية الفلسطينية، ويكون ذلك على المستوى اللفظي، والدلالي، والموسيقي ثم يتطرق الباحثان إلى أبعاد التجربة الشعرية في أعماق الشعراء، للوقوف على مدى التفاعل القائم بين ناحيتها الدلالية، والنفسية.

أولاً: الأُسلوب الشعري

تشير المعجمات اللغوية إلى **أَن الأسلوب يطلق على السطر من النخيل، وكل طريق ممتد فهو أُسلوب، وأساليب القول بمعنى (أفانين القول)**[28] **وعلى هذا فالأسلوب طريقة وفن.**

من ثَمَّ فإن الأصل اللغوي يمتد بصلةٍ ظاهرة إلى المعنى الاصطلاحي عند أحد الباحثين حينما يرى أَن الأسلوب هو **(طريقة الأداء، أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه، أو لنقله إلى سواه بهذه العبارة اللغوية)**[29].

فإذا كانت (اللغة مادة الأدب؛ **فإن الأُسلوب في الأدب هي كيفية استخدام اللغة)**[30]. ويرتبط الأسلوب ارتباطاً وثيقاً بشخصية الأديب، فهو طريقة تعبيره، وتفكيره، وتصويره. وعلى هذا تكون (الذاتية أساس تكوين الأسلوب)[31]. وهكذا يتأثر الأسلوب بشخصية الأديب وسماتها الفردية، وبرصيده من الخبرات المعرفية، والتجارب الحياتية فضلاً عن المؤثرات البيئية[32]. من ثَمَّ فقد انطلق الباحثون في رؤيتهم النقدية للأسلوب من اختلاف مشاربهم الأدبية، وتباين اتجاهاتهم النقدية[33].

ولمَّا كان الشعر فناً قائماً على اللغة؛ فإنه ينبغي (دراسة أسلوب العمل الأدبي تبعاً لانحرافه عن اللغة كما تستعمل في العادة)[34].

هذا يعني دراسة الألفاظ، والتراكيب، والصور، والدلالات الصوتية، والنفسية، والموسيقى الشعرية. حيث تدخل علوم البلاغة (المعاني، والبيان، والبديع) ضمن الإطار الشامل للأسلوب بوصفها إحدى مرتكزات النص الشعري عند العرب، كان الشعراء يضعونها في الحسبان، ومازالوا حينما ينظمون قصائدهم، وقد

تكون بوعي منهم أو دونما وعي لأن نظمهم يخضع لإطار العقل والوعي بخاصة حينما يكون الشعر ملتزماً معبراً عن قضية.

إن السمة العامة التي يمكن أن يطلقها الباحثُ على الأسلوب الشعري الذي عبَّرَ عن تخليده للعمليات الاستشهادية، وفي حدود النصوص المتوافرة، بأنه أسلوب وجداني.

وأهم خصائص هذا الأسلوب أنَّه يميل إلى رقة الكلمة، وعذوبة الموسيقى ويصدر عن نفس متألمة حزينة، مصوراً عاطفة القلب وآلامه ويتناسب هذا الأسلوب مع الحالة النفسية التي يكون عليها شعراء الانتفاضة الفلسطينية.

فإذا كانت اللفظة في الأسلوب المباشر قاموسيةً معجميةً ذات معنى محدّد، وتحمل فكرة واضحة ثابتةً؛ فإن اللفظة في الأسلوب الوجداني داخلية تنبع من أعماق الروح والمعاناة، وهي مفعمة بالمشاعر لا بفضيلة معناها، لأنها مفهومة متداولة، ولكن بفضيلة عمق الإحساس والوجدان. فاللفظة في الأسلوب المباشر تُفهم، لكنَّها في الأسلوب الوجداني تُعانى، كما في قول الشاعر جمال جاسم أمين مخاطباً الشهيد:

يا واهباً وقف الزمان لجوده كبراً وحق لمثله أن يكبرا
يا موعد الأمل العظيم وضوءه يا شاهداً يصحو إذا نام الورى[35]

فالألفاظ (واهباً.. يكبرا، الأمل، شاهداً) يجدها المتلقي مفعمة بالمشاعر والأحاسيس، وآمال النضال والكفاح، والصراع في الحياة من أجل الحرية. ويشعر أن القصيدة في عمومها تتدفق وجداناً وعاطفةً ورقةً.

فإذا كانت اللفظة في الأسلوب المباشر كاللفظة في الأسلوب الوجداني واضحةً فإنَّ الأولى مقيمة على حالةٍ واحدة. أما الثانية فهي شعورية تتنفس وتخفق، وتضطرب، وتختلج، وهي تحمل صدىً نفسياً لا قبل لنا على إبانته وإظهاره، لكننا نحسه وهو يصدح، ويئن عبر اللفظة، والبيت والقصيدة كلّها. أما الصورة فهي ــ غالباً ــ متوازنة وجلية، واضحةُ الملامح والسمات، يكاد لا يغفل المتلقي أمراً من أمورها، ولا يلتبس عليه ظل من ظلالها وهي تسعى إلى أن تكون شمولية تعبر عن

حقيقة النضال والجهاد، واستشعار الإنسان لكافة الجوانب الإنسانية والقومية والدينية. فتكون الاستعارة نافذة إلى الأعماق لتصور موقف الشاعر من الموت، أو اليأس، أو الأمل، أو الحياة، أو الفناء..الخ كما في قول الشاعر الذي تمثَّل به (أبو حمزة) في وصيته، ولا يعلم الباحثان إن كان له أو لغيره:

في جنة الله أحيا ... في ألف دنيا ودنيا

وما سأتمنى شيئاً ... إلاّ ويأتيني سعيا[36]

فلفظة (دنيا) هنا جاءت وفيها من أعماق الوجدان ما فيها وفيها أيضاً من الدلالات العميقة التي تعبر عن المعاناة والصبر والنضال وحب التضحية والفداء والإصرار على التحدي والصمود، ورغبة شديدة في رحمة الله وإكرامه للشهيد، فهذه المعاني المتعددة يستشعرها القارئ وهو يتمثل قوله (في ألف دنيا ودنيا) وعلى الرغم من البساطة في الألفاظ التي هي من الألفاظ المأنوسة المستعملة في الحياة اليومية، فقد بدت بأَن لها عمقاً في نفسية القائل وتأثيراً، وإذا نظر الباحثان إلى قوله (يأتيني سعياً) وجدها استعارةً متداولة تعبرّ عن تحقيق الأماني، وهي من الاستعارات التي استعملها الخطاب القرآني في مواضع عدة. ويلاحظ الباحثان أَن القائل شبه الشيء بشخص فحذف المشبه به وهو (الشخص) على سبيل الاستعارة التخييلية، وكانت لفظة (سعياً) قرينة معنوية دلّت على المشبه به. فهذه الاستعارة كما يلاحظ في عملية بنائها للصورة كانت مطروقة مسموعة ومألوفة. غير أنها لم تكن تقريرية وإنما تحملت بظلال النفس وصراعها في الوجود، وعبَّرت عن الوجدان برقة وعذوبة.

تأتي الموسيقى الشعرية متجاوبة في التعبير عن وجدان الشعراء، فيرى الباحثان الإيقاع ذا نغم حزينٍ أحياناً، وأحياناً تعلو فيه نغمة الحماسة بقصد إثارة المتلقي وبعث العزيمة في نفسه، وفي الغالب تميل القصيدة في نهايتها إلى النغم الحماسي، وقد تبدأ بنغم حزين فيه جزء من الشعور باليأس الذي ينتاب بعض المهادنين، ثم لا يبرح أَن يبدأ بالتزايد شيئاً فشيئاً حتى تنتهي القصيدة إلى الإيقاع

الحماسي- والإيقاع لا يكون من شيءٍ واحد، فهو ليس وزناً ولا لفظةً، ولا تركيباً، ولا صورةً، ولا فواصل، أو قواطع، وإنمَّا من ذلك كلِّه يحسُّ ويشعر فيترك أثره في نفسية المتلقي ووجدانه.

كان يلاحظ أَن الشاعر كثيراً ما يلجأ إلى القصيدة العمودية مراعياً بناءها المأثور، فيلزم وزناً واحداً وقافية واحدة، كما قيل (كثرة الطَـرْق يُلـين الحديـد). وربمَّـا لجأ بعضهم إلى بناء القصيدة الحرةّ، لما فيها من حرية في تنوع القافيـة، وتقليل عدد التفعيلات أو زيادتها في هذا البيت وذلك. وليس يهمُّ هنا كثيـراً بنـاء القصيدة الشكلي لأنه لم يؤثر كثيراً أو قليلاً على الخصائص العامة للشعر الذي خلد العمليات الاستشهادية.

ثانياً: التجربة الشعرية

على الرغم من التعريفات العديدة لمفهوم الأدب أو الشعر، فإن الشعر في أبسط تعريفاته هو: **(صياغة فنية لتجربة بشرية)**[37]. وكما هو معلوم فإن التجربة تصدر عن (الانفعال الذي يغشى الواقع، ويتحد معه، ويحل فيه، ولئن كان الانفعال واحداً بين الفنون الأدبية؛ فإنه يختلف من الواحد إلى الآخر في عنفـه، وصـفائه، ومدى سيطرته على الموضوع)[38].

إن التجربة قبل أن تكون شعريةً هي شعورية، أي أن الشعور يتفاعل مـع الذات الشاعرة والواقع والأحداث لتؤدي في النهاية إلى تفجير القصيدة أو ولادتهـا بعد مخاض.

لمَّا كانت التجربة انفعالاً ومعاناةً؛ فإن التعبير عنها شعراً يبقى قاصراً عن الوصول إلى حقيقتها كما هي في أعماق قائلها؛ ذلك أَن الانفعال شعور لا يُرى ولا يُلمس، أي أَنه مطلق. واللغة محدودة محسوسة. من ثَمَّ كانت الاسـتعارة والمجـاز والإيحاء تعكس ظلال التجربة الشعرية، وليس كما هي على وجه الكمال والتمام.

إن أبعاد التجربة الشعرية في الشعر العربي الذي خلَّد القضية الفلسـطينية تكاد تكون محسوسة عند أغلب المسلمين والعرب. وقد سبق للباحثين أن تطرقا إليها في غضون الدراسة الموضوعية ولو على نحو غير مستقل ومفرد.

يشعر المتلقي في التجربة الفلسطينية اعتزازاً بالشهادة في سبيل الله، وأنها فضل من الله خصَّ الله به الصابرين والمجاهدين من ذوي الحظ العظيم، وفيها شعور بالحزنِ متأتٍ من دوام النضال من غير أن يكون لهم تأييد مرضي من أخوتهم العرب، ومن الإحساس الإنساني حينما يفقد الإنسان عزيزاً من أهله. وفيها شعور أن الانتفاضة سيكون المستقبل لها، لأن تاريخ نضال الشعوب يؤيد هذه الحقيقة وأن الرسول ﷺ أخبر أن أمر هذه الأمة ما يزال بخير مادام فيها الجهاد قائماً وأن الأمم لا تتكالب على الأمة الإسلامية والعربية مادامت تحرصُ على الموت أكثر من حرصها على الحياة، ففي ذلك حريتها وعزتها. وهناك شعور أن العمليات الفدائية خيار وحيد لا ثاني له. وفيها شعور بالمرارة لواقع العرب، واستسلامهم لليأس مع أن لديهم القدرة في صنع قرارهم السياسي فيما لو وحّدوا صفوفهم، وقضوا على خلافاتهم، وتناسى الحكام مصالحهم الشخصية.

إذن فالتجربة الشعرية في الشعر الذي عبرّ عن القضية الفلسطينية وخلَّد عمليات الاستشهاد تجربة عميقة وغنية ومليئة بالأحاسيس فيها مشاعر وطنية فيها رؤية للمستقبل، وإنسانية، ودينية، وقومية. فإلى أي مدى تمكن الشعر العربي أن يعبرِّ عن هذه المعاني للانتفاضة، والنضال الفلسطيني؟ وهل تمكن الشعراء من الوصول إلى أعماق التجربة. وهذا ما سيسعى الباحثان- بمشيئة الله- إلى كشفه باستنطاق النص الشعري استقراءً وتحليلاً، بقصد الوقوف على أبعاد التجربة الشعرية.

فمن قصيدة للمقاتل (جمال جاسم أمين) نشرت في جريدة الثورة في العراق بعنوان (كن هول هذى الأرض) ويقصد الحجر الفلسطيني، فيقول:

ضلُّوا فلا نجم يلوح لمن سرى ... ومضوا كما تمضي السفوحُ بلا ذرا
عرب تنام، وأنت تصحو بينهم ... لتزيل عن أجفانهم ذلَّ الكرى
يكفيك ياحجر البطولة أنهم ... عمي وانك كنت ضوءاً مبصرا
أعمى زمانك كلَّ عين شابها ... عشو الضلال، وأنت وحدك من يرى
يا بن الثرى، طاولتها حتى غدا ... سيّانِ إن قلنا ثريا أو ثرى!

ووقفت في أهوالها مستصغراً ذمَّ الخيانة إذ تباعُ وتشترى
كن هول هذي الأرض كن إعصارها وإذا تلاطم موجها كن معبرا
كن صوتها الآتي، وفك أسارها فلقد أشرت لقيدها أن يكسرا[39]

إذ يمكن للباحثين أن يؤشرا البعد القومي في هذه القصيدة، وهو أمر ينسحبُ على الشعراء العرب غير الفلسطينيين، إذ يُحس الشعراء العرب بأخوتهم في هذا المجال.لإحساسهم الكامن في التقصير من النصرةِ بالسلاح فضلاً عن الكلام. فتركز القصيدة على جانب إحساس العرب بالذل، وأن الذل لم يأتِ إلاّ لنومة العرب الطويلة، كأنهم عمي لا يرون. وفي ذلك نقد للحكام الذين يذعنون بدعوى (السياسة) ريثما تتوفر أسباب القوة. والحقيقة أنهم لا يسعون لامتلاك أسباب القوة، ثم أنهم ليسوا ضعفاءً إلاّ في أنفسهم، فالأمر سيختلف لو اجتمع الرأي وتوحدت الكلمة. فجاءت الحجارة في هذه القصيدة لتمثل الأمل الذي يبعث في الأمة حياتها فيدفعها لاستثمار إمكاناتها لصالح قضيتها، فتعرض الشاعر هنا للقضية الفلسطينية من جانبها القومي بوصف أن الشاعر قد أثيرت مشاعره وأحاسيسه من هذا الجانب؛ لأنه عربي يعيش آلام الأمة وتطلعاتها. ولعل خيرَ قصيدة تصلح أن تكون شاهداً أو نموذجاً توفر على حظٍّ وافٍ من استيعاب التجربة الشعرية في الشعر العربي المعبر عن القضية الفلسطينية وشهدائها، قصيدة (مانع سعيد العتيبه) بعنوان (ثورة الحجارة)، وقد ارتأى الباحثان أن يورداها كاملة للوقوف على أبعاد التجربة فيها بوصفها مسك ختام هذا البحث، ولأنها تفي بالغرض من العمق والغناء، إذ يقول الشاعر[40]:

ما عادَ للكلماتِ وهجُ حرارهْ وأُحسُ حين أقولها بمرارهْ
فعلامَ، أنفخ في الرماد؟! محاولاً أن استمدَّ من الرمادِ شراره
لكنّه قدري، ولست مخيّراً في ما الفؤادُ أراده واختاره
في القدس أولد من جديدٍ حاملاً للنائمين اليائسين بشاره

وأقــولُ: إن البحــر نــادى أهلــه ... وعليـــه فليســـتيقظِ البحَّـــاره
هذا هــديرُ المــوج شــاعر ثــورة ... يلقـــي بوجـــه نعاســـكم اشـــعاره
حمل البشارة من فلسطين اسـمعوا ... مـــاذا تقـــول ســـواعد وحجـــاره
مـــاذا يقـــول دم الشـــهيد لأمـــة؟ ... شـــهدت عيـــون نيامهـــا أزهـــاره
لكنهـــا واليـــأس يُرخـــي فوقهـــا ... من عتمـــة الليـــل الشـــقيِّ ســـتاره
عادت إلى الأحـــلام تجتُّـــر المنـــى ... ودم الشـــهيد يضـــيء مُثـــل منـــاره
ماذا يقول الطفـل مشـنوقاً علـى ... غصـــنٍ مـــن الزيتـــون فـــي بيّـــاره
ما غاب عن عينيـه إصـرار ومـا ... خنـــقَ الجبـــانُ بشـــنقهِ إصـــراره
حتى الحجارة لم تـزلْ فـي جيبـه ... تحكـــي بحَسْـــمٍ رأيـــه وقـــراره
مـــاذا تقـــول صـــبية شـــقوا لهـــا ... ثوبـــاً؟! فأعطاهـــا الفـــداءُ إزاره
نادت صلاح الـدين فاشـتدت بهـا ... جـــدران بيـــت المقـــدسِ المنهـــاره
لكن صلاح الـدين مـات، ومالـه ... فينـــا وريـــث حميـــة وإمـــاره
والله مـــا شـــئتُ اســـتثارة نخـــوة ... فـــيكم فمـــا للميتـــينَ إثـــارهْ
لكننـــي وأنـــا أرى أمـــلاً خبـــا ... قد عاد يشعلُ فـي السـواعدِ نـارهْ
ارتد عـن ظلمـات يأسـي خارقـاً ... بحجـارةِ الغضـبِ الوليـد حصـارهْ
هـــي ذي بدايـــةُ رحلـــةٍ قدســـيةٍ ... في لجِ بحـرٍ مـا خشـيت غمـاره
ويدق بـابَ القلـب صـوت مكبَّـل ... فـــي القـــدس مـــلَّ قيـــودَه وأســـاره
صوت يقول أنا فلسـطين انظـروا ... لـــدمي يشـــعُّ قداســـةً وطهـــاره
حجر كـريم فـي يـدي وكرامـة ... ولكـــم تركـــبُ مقاعـــد النظـــاره
فتفجـــروا يـــا منتمـــون لأمـــةٍ ... كانت لهـا فـي العـالمين صـدارهْ
كانـــت إذا طمـــحُ العـــدوُّ بأرضـــها ... ثـــارت عليـــه قوّيـــةً قهَّـــاره
أو صـاحت امـرأة تنـادي منقـذاً ... لبّـــى بكـــلّ ســـيوفه البتَّـــاره
أين السيوف اليوم مـن معتصـمٍ؟ ... بـــل أيـــن، أيـــن جيوشُـــه الجَّـــراره

لهفي على الأقصى يصيحُ ولأرى ... نيرانَ منقذه، ولا أنواره
نامت عيون المؤمنين ولم ينم ... وعد لهارون الرشيدِ بغاره
هذا الفتى العربي فارسُ أمتي ... هو من أتابعُ معجباً أخبارهْ
فمن الأسى واليأس أشرق بسمةً ... في وجه أحزانٍ لنا هدّارهْ
ومضى بأحجار الكرامة راسماً ... للنصرِ في درب الفداء إشاره
فإذا سمعت أخي عن استشهاده ... يوماً وحاولَ ذهنك استذكاره
فاعلم بأني سوف أحيا مشعلاً ... في كلِّ ابناءِ القبيلةِ ثاره
أنا لا أخاف بأن يضيعَ دم الفتى ... في صوت من سيقدم استنكاره
لكن أخاف على بقية موطنٍ ... من غفلةٍ لقبيلتي غدّارهْ
فإذا قضى بطل سيولد غيرُهُ ... متحدِّياً وسيقتفي آثارهْ
لكن إذا ضاع الحِمى من أهلِهِ ... ذهبت جميعُ التضحياتِ خسارهْ

لقد قصد الباحثان إلى ترقيم الأبيات كي يعينهما ذلك على تقسيم القصيدة إلى لوحاتٍ عدّة من غير إعادة تلك الأبيات وعلى النحو الآتي.

اللوحة الأولى: البعد القومي

عكست الأبيات (1–10) الجانب القومي للقضية الفلسطينية، وقد جاءت الأبيات معبرة عن حال العرب، وموقفهم من ثورة الحجارة. فالشاعر يرى أن العرب قوة معطلة دونما سبب، سوى النوم الطويل الذي دفعهم إليه الحكام، لأن الشعب العربي يعي تماماً دوره الإسلامي والقومي تجاه أخوته الفلسطينيين، فكان في البيتين (1،2) قد دلَّ على اليأس من العرب في التخلص من واقعهم، فكانت مدلولات الألفاظ مفقودة، وأصبحت باردة لا حرارة فيها. وأشر في (3،4) قدر الفلسطينيين وطريقهم الذي ليس لهم طريق سواه، فكان في نظر الشاعر يحمل البشارة للعرب، لكنَّ الأمة العربية بقيت (تجتر المنى)، وهي عبارة استعارة. فالاجترار يكون للحيوانات في طريقة ابتلاعها للغذاء من غير هضم، فكان الشاعر

ساخراً سخرية مريرة من واقع يعيش على أطلال الماضي من غير أن يصاحب بعمل حقيقي. وفي البيت (10) جاء الاعتزاز بالذات الشهيدة بوصفها مناراً، وفي العادة أن لا يجري هذا المدح ما لم يكن قد أجحف حقه، أو أنكر دوره في واقع الحياة العربية.

اللوحة الثانية: البعد الإنساني

يتجلى هذا البعد في الأبيات (11ـ20)، إذ يقدم الصهاينة على قتل الأطفال الأبرياء الذين لا ذنب لهم ولا جريرة. وتداخل هذه اللوحة الإنسانية باللوحة القومية فنرى أن ظلال اللوحة الأولى مازال قائماً. فالشاعر يسعى إلى إثارة المشاعر القومية عن طريق اللوحة ذات البعد الإنساني، التي تصور طفلاً فلسطينياً يشنق وفي جيبه حجارة. إذ تشي الحجارة بإصرار الفلسطينيين على الاستمرار في طريق النضال أما صورة (الصبية) فهي تصل باللوحة إلى الحد الأعلى من الإثارة العاطفية للإنسان فتطل صورة (صلاح الدين الأيوبي) الذي يَعدُّ رمزاً من الرموز القومية والدينية بوصفه قد حرّر بيت المقدس إبان الحروب الصليبية، رغم أن الشاعر يرى أن المشاعر ميتة لا تثار، فيبدو أن هذه الصور لا تنير ظلمات اليأس. وهكذا يكون البعد الإنساني قد وظَّفه الشاعر لإثارة البعد القومي في نفوس العرب.

اللوحة الثالثة: البعد الديني

تمتد هذه اللوحة إلى أعماق التأريخ لما للقدس من مكانة في نفوس المسلمين فهي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي محمد ﷺ بارك الله فيها، وما حولها.

تبدأ هذه اللوحة من (20ـ30) بالحديث عن قدسية الأقصى، ومكانته:

هي ذي بدايةُ رحلةٍ قدسيةٍ في لج بحرٍ ما خشيت غماره

إذ يسعى الشاعر إلى إثارة الجانب القومي عن طريق الحديث عن البعد الديني والقدسي للأقصى، وعن طريق التذكير بالماضي العريق للأمة الإسلامية مسترجعاً

لصورة (المعتصم بالله)، ولصورة (هارون الرشيد) ابرز الخلفاء العباسيين الأقوياء في تاريخ الدولة الإسلامية في ظلِّ غياب المنقذ الذي يعيد الأقصى.

اللوحة الرابعة: الأمل القادم

تلتقي هذه اللوحات مجتمعة لتؤدي في النهاية إلى اللوحة الأخيرة، وهي لوحة الأمل القادم المتمثل في الفتى الفلسطيني الذي يحمل حجارته ليقارع بها ظلام الليل. فكان هذا الفتى مثار إعجاب الشاعر وتقديره. فهو على بساطة سلاحه لا يزال يبعث في النفوس إحساساً بالأمل، وبالمستقبل المشرق. فهو بسمة أشرقت في أمة حزينة، وهو يصنع طريق النصر، واهباً حياته للآخرين، فالقصيدة تدعو إلى احتذاء طريقه في النضال، وإلى استمرار الانتفاضة، لأنه كلما سقط بطل قام آخر مكانه.

أما الأبعاد الشاملة لهذه القصيدة التي تحقق وحدة الموضوع في القصيدة التي جمعت اللوحات فهي على النحو الآتي.

أولاً: الحزن والثورة:

جاءت القصيدة منذ بدايتها وحتى نهايتها ممتزجة بين الإيقاع الحزين والثوري ففي الوقت الذي يسعى فيه الشاعر إلى وصف الواقع المذل والمهين يبعث من جانب آخر روح الثورة والتحدي والصمود قومياً ودينياً. ويتجلى الإيقاع الحزين في القصيدة في بدايتها، وترتفع نغمة الإيقاع الحماسي الثوري في أبياتها الأخيرة مما يشي بالغاية التي نظمت لأجلها القصيدة، وهي بعث الهمم والعزائم في نفوس العرب، وانتشالهم من واقع مؤلم صنعوه لأنفسهم لا يتناسب ومكانتهم وإمكانياتهم وبالقدر الذي توفره (الهاء) من دلالة صوتية تعكس الحزن، فإنها تصلح للتنفيس عن الحالة الثورية فمن أمثال الدلالات الحزينة (مرارة، المنهارة، حصاره، قيوده، وأساره،..) أما توظيفها في عكس الدلالات الثورية ففي مثل (شرارة، بشارة، منارة، إصراره، قراره، قهارة، جيوشه الجرارة، أنواره..).

ثانياً: الأمل واليأس

هناك ثنائيان متضادان في القصيدة تناوبا على طول القصيدة، وتآزرا وتصارعا هما: اليأس والأمل؛ لأنهما يمثلان صراع النفس العربية في واقعها، فدعت القصيدة إلى طرح اليأس والتحلي بالأمل الذي يوفره الإيمان التام بالله، والمستقبل المضيء، وقد بدأت القصيدة وكأنها مؤيدة لحالة اليأس، ثم بدأ اليأس يتلاشى لأمور قومية ودينية وإنسانية وتاريخية، وكانت اللوحة الأخيرة لوحة الفتى الفلسطيني قد أوصلت الأمل في القصيدة إلى غايته المنشودة. أما دلالات اليأس ففي مثل (انفح في الرماد، النائمين، اليائسين، نعاسكم، اليأس، عتمة الليل، يجتر المنى، الطفل مشنوق، صبيه شقوا لها ثوباً..).

أما دلالات الأمل فيمكن أن تعكسها الألفاظ (استمد من الرماد شراره، أولد من جديد، فليستيقظ البحارة، حمل البشارة، سواعد وحجارة، يضيء مثل منارة أرى أملا، تفجروا يا منتمون لأمة، أشرق بسمة..).

وهكذا تنتهي القصيدة في النهاية إلى بعث روح التحدي والصمود والمقاومة في أبناء الأمة العربية كي يعيدوا بالجهاد والنضال ماضي أمتهم، وليس بالأماني والأقوال.

هوامش البحث

(1) الصناعتين لأبي هلال العسكري: 156.

(2) العمدة لابن رشيق القيرواني: 20/1.

(3) ديوانه: 88.

(4) تاريخ الطبري: 448/2.

(5) ديوانه: 123.

(6) ديوانه: 221.

(7) سورة آل عمران: الآية (169).

(8) الفائق في غريب الحديث: 226/2.

(9) ديوانه:220.

(10) الشعراء، مجلة فصلية ثقافية تصدر عن بيت الشعر، فلسطين، 10/حزيران/2000: 104– 105.

(11) وصية الشهيد مكتوبة بخط يده وهو من شهداء كتائب القسام.

(12) وصية الشهيد مكتوبة بخط يده وهو من شهداء كتائب القسام.

(13) وصية الشهيد مكتوبة بخط يده وهو من شهداء كتائب القسام.

(14) وصية الشهيد مكتوبة بخط يده وهو من شهداء كتائب القسام قام بتنفيذ العملية الاستشهادية البطولية شمال قطاع غزه في مستعمرة إسرائيلية يوم 2001/6/22.

(15) الأبيات الشعرية وردت في وصية أبي حمزة المارة الذكر. ويبدو من الأبيات المتقدمة أن الشاعر ضم قطعتين من قصيدتين مختلفتين جنباً إلى جنب إذ أن الأبيات الأربعة الأولى تختلف عن الأبيات الأخيرة.

(16) أبجدية الحجارة، كتاب فلسطين الثورة الانتفاضة محمد علي اليوسفي، بيسان للصحافة والنشر والتوزيع: 89.

(17) أبجدية الحجارة، كتاب فلسطين الثورة الانتفاضة، محمد علي اليوسفي، بيسان للصحافة والنشر والتوزيع: 89.

(18) جريدة العراق، العدد 7847، 2003/3/5م: 1.

(19) ديوان نشيد الحجر، عمان، 1984م: 88.

(20) أبجدية الحجارة، كتاب فلسطين الثورة الانتفاضة، محمد علي اليوسفي، مؤسسة بيسان للصحافة والنشر والتوزيع: 89.

(21) أبجدية الحجارة: 90.

(22) ديوانه: 219.

(23) ديوانه: 22

(24) ينظر الكراس الصغير الذي أعده د. وليد البدري بمناسبة المعرض المصور الأول الذي أقامته الجامعة الإسلامية ببغداد حول العمليات الاستشهادية البطولية لشعبنا في فلسطين.

(25) نشرت القصيدة في جريدة القادسية الصادرة في العراق بتاريخ 16/آذار/2002م.

(26) القصيدة مطبوعة على الآلة الكاتبة لم تنشر بعد، ألقيت في الجامعة الإسلامية ببغداد 2002/2/25 في حفل أقيم احتفاء بالعمليات الاستشهادية في فلسطين.

(27) الشعر والثورة، مجموعة من المؤلفين: 277.

(28) ينظر: لسان العرب، مادة (سلب).

(29) الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط6، 1966م: 44.

(30) شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى نهاية القرن الثامن الهجري، د. جودت فخر الدين، دار الآداب، بيروت، 1984م: 198.

(31) الأسلوب، أحمد الشايب: 134.

(32) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة، د. مجيد عبد الحميد، بغداد، ط1، 1984م: 12.

(33) ينظر: النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال: 116.

(34) شكل القصيدة العربية في النقد العربي: 200.

(35) من قصيدته بعنوان: كن هول هذي الأرض، إلى بطولة الحجر الفلسطيني نشرت في جريدة الثورة، الصادرة في 2001/1/7.

(36) من وصية أبي حمزة مكتوبة على الآلة الطابعة لم تنشر بعد. وفي البيت الثاني خلل عروضي.

(37) الفن ومذاهبه محمد مندور، دار النهضة، مصر، د. ت: 14.

(38) المصدر نفسه.

(39) جريدة الثورة في 2001/1/7.

(40) أبجدية الحجارة، كتاب فلسطين الثورة الانتفاضة محمد علي اليوسفي، مؤسسة بيسان للصحافة والنشر والتوزيع: 89-90.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

القرآن الكريم.

1. الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط6، 1966م.
2. الأسس النفسية لأساليب البلاغة، د. مجيد عبد الحميد، بغداد، ط1.
3. تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، 1984م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1966م.
4. ديوان سليمان العيسى.
5. ديوان عبد الله بن رواحة، حققه: د. حسن باجودة، القاهرة، 1972م.
6. ديوان عبد العزيز المقالح.
7. ديوان نشيد الحجر، عمان، 1984م.
8. الشعر والثورة، مجموعة من المؤلفين.
9. شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى نهاية القرن الثامن الهجري، د. جودت فخر الدين، دار الآداب، بيروت، 1984م.
10. الصناعتين، لأبي هلال العسكري، مطبعة البابي الحلبي، 1952م.
11. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني (ت456هـ)، مطبعة السعادة، ط3، 1963م.
12. الفائق في غريب الحديث.
13. الفن ومذاهبه، محمد مندور، دار النهضة، مصر، د.ت.
14. لسان العرب، لأبن منظور (ت711هـ)، دار صادر، بيروت، 1956م.
15. النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، 1973م.

ثانياً: المجلات والجرائد

المجلات:

1. مجلة أبجدية، الحجارة كتاب فلسطين، الثورة، الانتفاضة، محمد علي اليوسفي، بيسان للصحافة والنشر والتوزيع.
2. مجلة الشعراء، مجلة فصلية ثقافية تصدر عن بيت الشعر، فلسطين، 10/ حزيران.

الجرائد:

1. جريدة الثورة، جريدة يومية تصدر في العراق ببغداد.
2. جريدة العراق، جريدة يومية تصدر في العراق ببغداد.
3. جريدة القادسية، جريدة يومية تصدر في العراق ببغداد.

ثالثاً: الوصايا

1. وصية الشهيد إبراهيم فايد، وصية مكتوبة بخط اليد وهو من شهداء كتائب القسام.
2. وصية الشهيد أبي حمزة، وصية مكتوبة بخط اليد وهو من شهداء كتائب القسام.
3. وصية الشهيد امجد فياض، وصية مكتوبة بخط اليد وهو من شهداء كتائب القسام.
4. وصية الشهيد محمود أبو هنود، وصية مكتوبة بخط اليد وهو من شهداء كتائب القسام.